

تفسير ابن كثير

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو فقال مخاطبا للكافرين : { وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا } يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فإنكم لا تستطيعون ذلك قال ابن عباس : شهداءكم أعوانكم وقال السدي عن أبي مالك شركاءكم أي قوما آخرين يساعدونكم على ذلك أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم وقال مجاهد وادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص { قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين } وقال في سورة سبحان { قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا } وقال في سورة هود : { أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين } وقال في سورة يونس : { وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين } وكل هذه الآيات مكية ثم تحداهم بذلك أيضا في المدينة فقال في هذه الآية { وإن كنتم في ريب } أي شك { مما نزلنا على عبدنا } يعني محمدا صلى الله عليه وسلم { فاتوا بسورة من مثله } يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير والطبري والزمخشري والرازي ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري وأكثر المحققين ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيههم وذلك أكمل من التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئا من العلوم وبدليل قوله تعالى : { فاتوا بعشر سور مثله } وقوله { لا يأتون بمثله } وقال بعضهم من مثل محمد صلى الله عليه وسلم يعني من رجل أمي مثله والصحيح الأول لأن التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى : { فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا } ولن لنفي التأييد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبدا وهذه أيضا معجزة أخرى وهو أنه أخبر خيرا جازما قاطعا مقدما غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الأبدين ودهر الدهرين وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد

فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى : {
الكتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير } فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو
بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى فقد أخبر عن مغيبات ماضية
كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى : { وتمت
كلمة ربك صدقا وعدلا } أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس
فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات
التي لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل في الشعر إن أعذبه أكذبه وتجد القصيدة الطويلة
المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس
أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد
شيئا إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح ثم
تجد له فيه بيت أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرهما هذر لا طائل تحته وأما القرآن
فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فهم كلام العرب
وتصارييف التعبير فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسطة أو
وجيزة وسواء تكررت أم لا وكلما تكرر حلا وعلا لا يخلق عن كثرة الرد ولا يمل منه العلماء وإن
أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما طنك بالقلوب
الفاهمات وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والاذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن
كما قال في الترغيب { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون }
وقال : { وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون } وقال في الترهيب :
{ فأمنتم أن يخسف بكم جانب البر } { أمأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور
* أمأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير } وقال في الزجر :
{ فكلأ أخذنا بذنبيه } وقال في الوعد : { أفأرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا
يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون } إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة
والحلاوة وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن
نافع طيب محبوب والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء كما قال ابن مسعود وغيره من السلف إذا
سمعت الله تعالى يقول في القرآن : { يا أيها الذين آمنوا } فأرعاها سمعك فإنها خير يأمر
به أو شر ينهى عنه ولهذا قال تعالى : { يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم
الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم } الآية وإن جاءت
الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه
وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل
الخيرات واجتناب المنكرات وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة وثبتت على الطريقة المثلى

وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة B [عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة] - لفظ مسلم - وقوله صلى الله عليه وسلم : [وإنما كان الذي أوتيته وحيا] أي الذي اختصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليس معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم وله E من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر والحمد والمنة .

وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة فقال : إن كان هذا القرآن معجزة في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر وإنا أعطيناك الكوثر .

وقوله تعالى : { فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين } أما الوقود بفتح الواو فهو ما يلقي في النار لإضرارها كالحطب ونحوه كما قال تعالى : { وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً } وقال تعالى : { إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون } والمراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهي أشد الأحجار حرا إذا حميت أجارنا الله منها وقال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط بن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : { وقودها الناس والحجارة } قال هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين رواه ابن جرير وهذا لفظه وابن أبي حاتم والحاكم في مستدركه وقال على شرط الشيخين وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أما الحجارة فهي من كبريت أسود يعذبون به مع النار وقال مجاهد حجارة من كبريت أنتن من الجيفة وقال أبو جعفر محمد بن علي حجارة من كبريت وقال ابن جريح حجارة من كبريت أسود في النار وقال لي عمرو بن دينار : أصلب من هذه الحجارة وأعظم وقيل المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى : { إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم } الآية حكاه القرطبي والرازي ورجحه على

الأول قال لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمستنكر فجعلها هذه الحجارة أولى وهذا الذي قاله ليس بقوي وذلك أن النار إذا أضرت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك ثم أخذ النار بهذه الحجارة أيضا مشاهد وهذا الجص يكون أحجارا فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها وإنما سيق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال تعالى : { كلما خبت زدناهم سعيرا } وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمر ويشتد لهبها قال ليكون ذلك أشد عذابا لأهلها قال وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [كل مؤذ في النار] وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف ثم قال القرطبي وقد فسر بمعنيين أحدهما أن كل من آذى الناس دخل النار والآخر أن كل ما يؤدي في النار يتأذى به أهلها من السباع والهومام وغير ذلك .

وقوله تعالى : { أعدت للكافرين } الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود ولا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما متلازمان وأعدت أي رصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن إسحاق عن محمد بن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس { أعدت للكافرين } أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر وقد استدلل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى : { أعدت } أي أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها [تحاجت الجنة والنار] ومنها [استأذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف] وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها] وهو عند مسلم وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس .

(تنبيه ينبغي الوقوف عليه) .

قوله تعالى : { فاتوا بسورة من مثله } وقوله في سورة يونس : { بسورة مثله } يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أم قصيرة لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عن المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين الناس سلفا وخلفا وقد قال الرازي في تفسيره فإن قيل قوله تعالى : { فاتوا بسورة من مثله } يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن فإن قلت إن الإتيان

بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر كان مكابرة والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين (قلنا) ولهذا السبب اخترنا الطريق الثاني وقلنا إن بلغت هذه السور في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزا فعلى التقديرين يحصل المعجز هذا لفظه بحروفه والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة قال الشافعي آمنوا الذين إلا * خسر لفي الإنسان إن * والعصر { لكفتهم السورة هذه الناس تدبر لو C وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر { وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال وما هي فقال { والعصر * إن الإنسان لفي خسر { ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال ولقد أنزل علي مثلها فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقرر ثم قال كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : وا □ إنك لتعلم أنني لأعلم أنك تكذب